النقد المغربي المعاصر من المخطوط إلى الكتاب

رشيد يحياوي

ا - قراءة طوبوغرافية

تمثل الدراسات الأدبية التي سبق ان قدمت لنيل شهادات جامعية إضافة بارزة في سوق الكتاب المغربي . بل إن هذه الأعمال أصبحت اللبنة الأساس في هذه السوق الرمزية والمادية . وهي الممثلة لخارطة الاتجاهات النقدية الجمالية المغربية . بالاضافة إلى مجالات الترجمة وأعمال أخرى منجزة بموازاة اهتمام الجامعيين . وكل ذلك يعكس نوعية اهتمام المثقف المغربي في العقد الماضي وهذا العقد .

وبدءا نلاحظ أن انتقال هذه الأعمال من فضاء المدرج والمخطوط إلى فضاء المطابع وسوق النشر ، كان له تأثيره على الوضع المادي للأثر. لقد انتقلت هذه الرسائل والأطروحات من الكمون إلى الظهور . فتخلصت بذلك من وضع المخطوط إلى وضع الكتاب المتداول في السوق .

هذا الانتقال من وضع إلى وضع ، أعطى للأثر شكلا جديدا في حجمه وطباعته وغلافه وفي انتسابه لدار نشر أو طبع معينة . بل مثل هذا التحول من وضع لوضع ميلادا جديدا بالنسبة لهذه الأعمال . إذ بدل الإشارة إلى تاريخ المناقشة ومكانها أصبح يشار لتاريخ الصدور المطبوع ومكانه .

ويبدو أن مؤلفي هذه الأعمال مختلفون في زاوية النظر إلى وضعيها القديم والجديد. فبعضهم يحرص على الإشارة إلى أن الكتاب في الأصل هو رسالة أو أطروحة جامعية ، فيذكر الجامعة والكلية التي تمت بها المناقشة . ويذكر لجنة المناقشة وتاريخها بالاضافة إلى الميزة النهائية التي حصل بها صاحب العمل على شهادته . ومن أمثلة هذا المسلك كتاب " تحليل الخطاب الشعري : البنية الصوتية في الشعر " لمحمد العمري . وكتاب " شعرية النص الروائي " لبشير القمري . بل إن بعض هذه الأعمال يحرص على الحفاظ على الديباجة التقليدية للمقدمة. حيث يتم ذكر محتوى

الفصول بالتتابع ومنهاج الدراسة مع الشكر للمشرف وللمساعدين . ومن أمثلة هذه الكتب كتاب " لسانيات النص : مدخل إلى انسجام الخطاب " لمحمد خطابي . وكتاب " الشكل والخطاب : مدخل لتحليل ظاهراتي " لمحمد الماكري . وكتاب " الشخصية في المسرح المغربي " لعز الدين بونيت .

غير أن مؤلفين آخرين اختاروا أن يكون نشر أعمالهم مناسبة لخلقها من جديد . فحذفوا كل ما يدل مباشرة على وضعها الجامعي السابق . ونذكر من أمثلة هذه الأعمال كتاب " بنية الشكل الروائي " لحسن بحراوي وكتاب " تحليل الخطاب الروائي " لسعيد يقطين .

ويبدو أن أغلب هذه الأعامل ـ حتي التي احتفظت بنسبها الجامعي السابق ـ قد خضع في عنوان لتعديل أو تغيير . وتعكس العناوين الجديدة طبيعة المنهاج الذي تم توسله في العمل . بل إن هذا الإلحاح على إبراز التفكير المنهاجي في العناوين ، أصبح يوهم في بعض الأعمال أن الكتاب خصص بكامله لموضوع المنهاج وليس كتابا في التحليل النصي .

وقد هدفت العناوين الجديدة إلى أمرين : إما إلغاء النوع أو النمط الأدبي الذي تم الاشتغال عليه ، أو إلغاء الثقافة التي ينتمي إليها ذلك النوع أو النمط .

ونمثل لذلك بالكتب التالية .

ـ " لسانيات النص : مدخل لانسجام الخطاب "

إلغاء النمط الذي هو الشعر وإلغاء الثقافة التي هي العربية بعامة .

ـ "الشكل والخطاب .مدخل لتحليل ظاهراتي ".

إلغاء النمط الذي هو الشعر وإلغاء الثقافةالتي هي العربية بعامة .

ـ " الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي " .

إلغاء الثقافة التي هي العربية بعامة

ـ" تحليل الخطاب الشعري : البنية الصوتية في الشعر " .

إلغاء الثقافة التي هي العربية بعامة .

ـ " شعرية النص الروائي "

إلغاء الثقافة التي هي المصرية بالتحديد .

ـ" بنية الشكل الروائي "

إلغاء الثقافة التي هي المغربية بالتحديد .

ـ " تحليل الخطاب الروائي "

إلغاء الثقافة التي هي العربية بعامة .

وبهذا أصبحنا أمام قائمة من العناوين تعرض قائمة من مصطلحات العلوم والمناهج. فقد أخضع المؤلفون عناوين أطروحاتهم لتغييرات وتعديلات اختصرت العناوين الأصلية وأعطتها نوعا من التعميم لدرجة أنها لاتؤشر في ذاتها لا للثقافة التي ينتمي إليها المتن المدروس ولا للنمط الأدبي لذلك المتن . لقد كانت هناك من غير شك مقاصد خلف هذه التعديلات . لعل أبرزها سببان:

ا ـ الانشغال بمسألة المنهاج وتقديمه على الموضوع .

ب ـ إلزامات ترتبط بسوق النشر .

ونستنتج من هذه الأعمال أن الثقافة النقدية الواصفة في المغرب تعج بالآراء والاتجاهات ولم تبلور بعد اتجاها له الغلبة .بل ضمن الاتجاه الواحد ؛ سيميائي مثلا أوشعري بنيوي ، نجد مقاربات متباعدة .ولو وقفنا على سبيل المثال عند أعمال تناولت الخطاب الشعري أو الروائي ، لوجدنا أن مصطلح " خطاب " شديد التنوع فيها ويمثل فضاء رحبا يتسع لشتى أنواع المناهج . نذكر هنا بالتباعد بين محمد العمري وبين الماكري وبين أحمد الطريسي وبين محمد بنيس وبين محمد مفتاح . وكلهم اشتغلوا على الخطاب الشعري .وكذلك التباعد بين سعيد يقطين وبين بحراوي وبين حميد لحمداني .وكلهم اشتغلوا على الخطاب الروائي .

هل نتساءل إذن عن الدواعي الثقافية والاجتماعية التي تكرس كل هذا التعدد؟ وهل نعتبر هذا التعدد في الاتجاهات المنهاجية ظاهرة تكرس ثراء وغنى الدرس الأدبي النقدي ؟ أم نعتبر ذلك حيرة أمام تعدد الاختيارات وبحث شكلي عن التفرد ؟

أما إذا رمنا الموازنة بين الاختيارات المنهاجية لهذه العمال وبين مواضيعها فنجد أنها متميزة في مابينها بما يلي :

أ ـ أعمال يتضخم فيها الجانب النظري بعتاده القديم والحديث مقابل ضعف كمي في المعالجة النصية . مع أن هذه الأخيرة كانت تمثل الهدف الأساس لهذه الأعمال .

ب ـ أعمال لم تعرض للجانب النظري إلاباعتباره يقدم أدوات مساعدة لمباشرة النصوص . ولذلك قللت من وضعه الكمي في الكتاب .

ج ـ أعمال منفتحة في متنها على تحليل عدة نصوص مقابل أخرى جعلت اختيارها في نص إبداعي واحد .

د ـ أعمال يمثل النص الواحد بالنسبة لها مدخلا لمعالجة إشكالات منهاجية ونصية ، مقابل أخرى يمثل النص الواحد عالمها المغلق الذي لا تتعداه .

ه ـ أعمال تهدف لإضافة معرفةجديدة بالثقافة العربية وبالمنهاج ، مقابل أخرى هدفها الأقصى أن تنجح في التمرن على تطبيق إجراءات منهاجية غربية على نصوص عربية قديمة أو حديثة .

و ـ يغيب عن أغلب هذه الأعمال تلك الأسئلة الشمولية التي تتموقع خارج التشريح النصي فتتساءل عن المسارات الكبرى للجدل الثقافي في تطوره وفي علاقته بالبنيات المعرفية المتعددة والبنيات الاجتماعية الأخرى .

ز ـ تظهر قوائم مراجع هذه الأعمال أن الكتاب النقدي المشرقي بل المغربي كذلك ، لم يعد يشكل سوى مرجع هامشي يستأنس به في أحسن الأحوال . فيما الغلبة نراها للكتاب الوارد بلغة أجنبية في مقدمتها الفرنسية والإنجليزية . وهذا مسلك جيد من ناحية ، لأنه يؤكد أن هذا الدرس النقدي لم يعد متخلفا عن تحولات الثقافة العالمية. بل يلاحق آخر ما تصدره المطابع الغربية من كتب يتوصل بها هؤلاء الدارسون بطرقهم الخاصة قبل أن تنزل حتى لسوق الكتاب في المغرب . غير أنه يفصح من ناحية عن عدم الميل إلى خلق تراكم معرفي يتواصل فيه السابق باللاحق. إذ ينعدم أن نجد في المغرب ناقدا يعمل على تطوير أطروحة لأحد سابقيه . هذا إن اعترف فعلا أن لزملائه أطروحات .

II) تنميط المنهاج .

إن تنميط المنهاج ليس بالأمر الهين . وبخاصة أن مؤلفي الكتب المذكورة وغيرهم حاولوا التركيب بين مناهج متعددة قصد فرز أدوات إجرائية مناسبة للتحليل المقصود. ولذلك فالضرورة ملحة في الوقت الراهن للتمييز بين الخطابات التي تجعل الأدب موضوعا لها . غير أن العادة جرت على إدخال كل هذه الخطابات ضمن ما يسمى بالنقد الدبي . في حين لم يعد النقد سوى . فرع من هذا العدد الكبير من

الخطابات الواصفة للأدب .إذ كيف نصنف في خانة واحدة هـي النقد الأدبـي مقـالات صحفية ودراسات ورسائل وأطروحات جامعيـة وكتـب فـي النظريـات الأدبيـة؟ ربمـا حان الوقت لنقوم بدراسة لأنواع الخطاب الواصـف . وسـيمكننا ذلـك ـ مادمنـا ابتلينـا بمطلح النقد الأدبي ـ من وضع هذا النقد في مكانه .

ولو حاولنا ذلك في هذه الأعمال ، فإننا سنجابه بصعوبات عدة . فأصحابهـا لايقدمون أنفسهم باعتبارهم نقادا بل يكتفون بنعت أنفسـهم دارسـون وبـاحثون وبنعـت كتبهم بأنهـا بحـوث ودراسـات . وفـي الوقـت نفسـه ، فرضـت عليهم طبيعـة العمـل وظروفه الجامعية التحلي بالموضوعية دون الجنوح إلى التقييم والأحكـام الشـخصية . لدرجة أن أصبح هذا النقد ـ إن جاز لنا أن ننعته بالنقد ـ يرجع سـلطة النـص والقيـاس على باب الاجتهاد .ومن هنا قل حظـه مـن الحجـاج والجـدال . وهـذا مـايبرر التلقـي الساكن له .

لم يعد النقد الأدبي هو الحاكم الوحيد بامر الأدب منذ تم اختراقـه مـن طـرف العلوم الحديثة.حيث برزت مسالك جديدة لدراسة الأنساق الأدبية وغير الأدبيـة . بـل يبدو لنا أن الأدب فـي طريقـه ليفقد خطابـا واصفـا خاصـا بـه . ولـو وقفنـا الآن عنـد مبـاحث الأبنيـة والسيميائيات والنـص والخطـاب والتلقـي والتـداول ومـا شـابه ذلـك ، لوجدنا أنها تشتغل علـى ظواهـر متعددة لايمثـل الأدب ضمنهـا سـوى عنصـر واحـد .قديما استطاع النقد أن يحافظ على مركزيته رغم الأطـراف التـي اخترقتـه والمتمثلـة في العلوم القديمة . ولاشك أن من أسباب الوضـع الحالي للنقد ، ما يعرفـه الأدب مـن تحولات سريعة أصبحت تدعو لمعالجات قادرة على مواكبتها . كما ان هنـاك الوضـع التداولي للأدب عند المتلقي المعاصر . إذ ماذا يمثل الأدب عنـد هـذا المتلقـي ومـاهي درجة التأثير التي بوسع الأدب أن يمثل فيها خطورة مقارنة مع ما كان قديما ؟

في مقابل النقد الدبي نجدبعض هذه الأعمال يؤكد انتماءه إلى مبحث الشـعرية. ربمـا يبرز ذلك أن نتساءل عما إذا كانت هذه الأعمال قد قدمت شعرية عربية أو مغربية . وهذا سؤال ملغوم إلى حد ما بخلاف اطلاقنا تسمية النقد العربي الحديـث الـذي سـمي عربيا بسبب طبيعة المتن الذي تناوله . أما في ما يخص الشـعرية فإننـا إذا اعتبرناهـا علما ، فستكون بالضرورة محايدة عرقيا صالحة لكل أمة ولكل أدب . إذ تكـون مثـل الفزياء والطب والنظر الفلسفي . لكـن مـاذا لـو لأن شـعرية أمـة مـن الأمـم ارتبطـت

بأسئلة خاصة بتلك الأمة وبثقافتها . ألا نقول في هذه الحالة بشعرية عربية وأخرى يونانية مثلا؟ وهل ننكر العلائق التاريخية التي نشأت في حضنها الشعريات الأوربية؟

إن الشعرية كغيرها من المقاربات الأدبية تحمل الخصوصيات المحلية مراهنة على تصبح كونية بسعيها لمعانقة المقولات الكبرى التي تتحقق بشكل أو بآخر في مختلف آداب الشعوب . وتمثل مباحث الأدب المقارن حقلا خصبا لاكتشاف هذه المقولات . والمسعى الكوني للنظريات الأدبية المعاصرة هو الذي مكنها من الانتقال من فرضيات أحيانا وخلاصات لتجارب نصية أحيانا أخرى إلى مبادئ يتوسلها باحثون من أقطار مختلفة بالنسخ الحرفي أو بالاضافة والتعديل .

وإذا كانت الشعرية ممارسة في اكتشاف النشاط الداخلي للأدب ، فإنها تمثلها يلغي السؤال التقليدي حول قضية استيراد النظريات وتصديرها وعلاقة ذلك بالأرض الأدبية التي تزرع فيها تلك النظريات . ذلك لأن النظر الداخلي في الأدب متحقق مثلا في المقاربات العربية القديمة والحديثة . ولكن ليس بالصرامة التي تفترض الشعريات المعاصرة تحققها .

إن التساؤل عن شعرية عربية لايعني مدى استيعابنا وتطبيقنا للشعريات الغربية ، وإن كان ذلك يجب أن يراعى لأنه أحد مصادر شعريتنا المعاصرة . فالتساؤل عن الشعرية العربية : قديمة أم حديثة ، يرمي إلى التأكد من درجة فهمنا للأشكال الأدبية وبناها الداخلية وطرائق اشتغالها . ولابد أن يكون ذلك بمراعاة القيم الثقافية والتلقي الأدبي . بما في ذلك الشروط التحتية لهذه القيم ولهذا التلقي . فهذه الشروط تتدخل لتضيف إلى التحققات الأدبية الداخلية أخرى خارجية تسهم في بناء نسق مفترض لشعرية ما ولاتحصرها في مجرد مقولات أدبية مجردة أو مجرد اختيارات محض لغوية نصية .

البحث عن شعرية " عربية " حديثة يقتضي الوعي بشروط ثلاثة :

أ ـ الوعي بشعرية عربية قديمة .

ب ـ الوعي بشعرية قديمة وحديثة غير عربية .

ت ـ الوعي بكل وجهات النظر التي نرى أنها تحقق عندنا أدبية الأدب . سواء أكانت داخلية أم خارجية .

إن مجموعة من الأعمال المنشورة تنحاز بالفعل إلى مباحث الشعرية وتتوسلها . وقدانصب عدد من هذه الأعمال على الرواية بصفة خاصة . بحكم أن الرواية والسرد بعامة مثلا مرتع الشعريات الغربية . نخص من هذه الأعمال ثلاثة هي : " شعرية النص الروائي " لبشير القمري . و"تحليل الخطاب الروائي " لسعيد يقطين . و" بنية الشكل الروائي " لحسن بحراوي .

لقد تمثلت هذه الدراسات بعض المنجزات الشعرية الغربية مستحضرة مقولات مثل : الزمن والمكان والشخصيات والسرد والخطاب ، معدلة فيها بما تراه مناسبا لواقع النصوص الروائية التي تم الاشتغال عليها .

يؤكد هؤلاء الدارسون قناعتهم بتبني مفاتيح الشعرية بدءا من تقديمهم لمشاريع دراساتهم . حيث يتبين اختياراتهم للشعرية ممثلة في السرديات البنيوية الشكلية .

يقول سعيد يقطين :"تسلك في تحليلنا هذا مسلكا واحدا ننطلق فيه من السرديات البنيوية كما تتجسد من خلال الاتجاه البوطيقي ". (ص 7) . ويقول حسن بحراوي : "هذه القراءة التي سنقوم بها لبعض عناصر الشكل الروائي تبتغي الانتقال كما نرجو، بالمعرفة النظرية - الشعرية والنقدية - إلى أفق التحليل البنيوي المنتج .. وهي ، إذ تعطي الأولوية للشكل باعتباره الهدف المركزي للمارسة النقدية ، إنما تسعى عبر ذلك إلى بلورة الوظائف الجمالية والغايات الفنية المتجسدة في البناء الشكلي للرواية المغربية .ولتحقيق هذه الغاية ، فقد اتخذنا البنيوية الشكلية إطارا عاما وتعاملنا معها بوصفها أسلوبا ومنهجا لبناء النماذج والتصورات وليس كمعتقد أو دوغم " (ص22).

أما بشير القمري فيؤكد اختياره للشعرية بدءا من عنوان دراسته التي جعل لها العنوان التالي :"شعرية النص الروائي ". ويبين هذا العنوان أن الشعرية انزاحت عن البحث في المقولات العامة لتحصر نفسها في النص الواحد . غير أن بشير القمري عرف كيف ينتقل من هذا النص الواحد الذي هو :"كتاب التجليات " لجمال الغيطاني ، إلى البحث في تداخل النصوص ـ مقولة التناص ، وإلى البحث في الإشكال الأنواعي ـ مقولة الأنواع الأدبية .

وإذا كان حسن البحراوي أكثر الباحثين الثلاثة إلحاحا على الالتزام بالبنيات النصية الداخلية، فإن سعيد يقطين وإن التزم نفس المنحى في كتابه المذكور ، ففي كتابه

الآخر :"انفتاح النص الروائي " ، سيعالج بتدقيق تعالقات النص في بنياته الداخلية والخارجية . سواء أكانت هذه البنيات الخارجية اجتماعية أم لغوية أم نصية أيضا . ولهذه الأسباب استدعى الباحث أطرا مفاهيميه من خارج الشعرية الشكلانية وبالتحديد من سوسيولوجيا النص وسوسيولوجيا السرد .

وسيملي موضوع الانفتاح النصي للرواية على سعيد يقطين استحضار مقولة التناص التي يبحثها ضمن مايسميه بالتفاعل النصي . كما يستحضر مقولة النوع الأدبي . يقول في كتابه "انفتاح النص الروائي ":"سنتحدث عن "بنيات " نصية ، لا تتميز عن بعضها بطبيعتها الصيغية البنيوية ، ولكن بطبيعتها الدلالية والنوعية (من النوع الأدبي) "(ص 92) .

لقد صنفنا هؤلاء الدارسين ضمن الشعريين مع أن هذا التصنيف مأزق . فكتاب " انفتاح النص الروائي " مثلا ، أقرب الكتب المذكورة إلى مدار الشعرية الصرف بحكم انشغاله النظري ببناء أنساق وآليات اشتغال الروائي من حيث كونه خطابا منفتحا . أما الكتب الأخرى بما فيها كتاب " تحليل الخطاب الروائي " لسعيد يقطين ، فلا تمثل الشعرية بالنسبة لها سوى مداخل منهاجية لنقد الآثار الأدبية .فهي من ثمة أقرب إلى النقد الأدبي .

أما هؤلاء الباحثون فلهم بالطبع رأي في تمييط أعمالهم . فصاحب "انفتاح النص الروائي " يقول عن عمله هذا :"محاولة نعتقد جازمين أنها في بدايتها .وبدون تفاعل القارئ والناقد التفاعل المناسب معها نقاشا وبحثا وتطويرا، لايمكنها إلا أن تنغلق على ذاتها ، وتكون صيحة لااستجابة لها. وآن لنقدنا الروائي والأدبي عموما أن يضطلع بمهامه في تطوير قراءتنا ووعينا بالذات والموضوع في سياقاته الثابتةوالمتحولة "(ص6) . أما كتابه الآخر المذكور فوصف العمل فيه بأنه مزاوجة بين عمل الشعري وبين عمل الناقد الذي " يدقق كلياته ويبلورها من خلال تجربة محددة " (ص8) .

وإذا كان حسن بحراوي حسم في ميثاقه مع القارئ حين أعلن أن عمله " قراءة " تريد أن تجد مكانها بخلقها تنوعا في الخطاب النقدي ، فإن بشير القمري يقف عند وصف عمله بأنه "قراءة " تتبنى مقولة التناص . ولذلك سماها " قراءة تناصية ".

يتبين مما سبق أن هذه الأعمال تقف في وضع من غير فاصل بين الشعرية والنقد الأدبي . فأصحابها شعريون من حيث بحثهم في المقولات الأدبية .ونقاد من حيث احتكامهم إلى الآثار الأدبية قصد نقدها .

ويتميز سعيد يقطين بأنه أكثر من غيره اهتماما ليس بالآثار الروائية في ذاتها ولكن بالمقولات والبنيات التي لاتمثل الروايات سوى إنجازلها والتي يمكن أن نجعلها مسؤولة عن إنتاج "رواية عربية " .

ولعل السبب في ما نعتقده غيابا لهذا النوع من الدراسات ، راجع إلى أننا مازلنا لم نعرف بعد إذا ما كانت عندنا بالفعل رواية "عربية" أم أن رواياتنا مجرد مبادرات لكتابة نصوص ذات خصوصية فردية ولم تؤسس بعد مشتركها الذي يسعف في تجريد بنياتها المشتركة .

إن ما عرضنا له من أعمال لايمثل سوى عينات من جملة كبيرة من الكتب المنشورة والتي كانت في الأصل رسائل وأطروحات جامعية .وقد تناولت مواضيع أدبية ومعرفية مختلفة . ولم يكن بوسعنا في مقام كهذا أن نعرض لها تفصيلا أو جملة .ولابد أن تتضافر الجهود في هذا الاتجاه لأجل تقييم حصيلة ما تم إنجازه حتى الآن .إذ لايمكن لأية معرفة أن تتقدم دون حوار بناء بين الباحثين .